« ٣٢ »

القطب الكبير.. أبو العلمين

«سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه»

فى مقام الحضور والمشاهدة تتوالى أنوار التجلى الإلهى على قلب العارف وتتكشف غيوم الأستار عن سماء الحقيقة. فيفنى المشاهد بسره فى معاينة الجمال القدسى، وتعب الروح من كأس الوصال حتى الثمالة. وعندئذ تسطع شموس المعارف والإلهامات فى ساحة القلب، وينهل السر من أسرار الغيب. ومع دوام التجلى يتواصل الإمداد والإشراق، ويهتف العارف بلسان الحقيقة قائلا:

ليلى بوجهك مشرق

وظلامه فى الناس سارى

فالناس فى سدف الظلا

م ونحن فى ضوء النهار

إنه مقام أهل الصدق والإخلاص من خواص الحق تعالى المقربين وأوليائه العارفين رضى الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

ومن شوامخ أعلام أولئك الأئمة الواصلين، وصدور أعيان الأولياء المحققين: قطب أقطاب العارفين ومركز دائرة الصديقين غوث الثقلين أبو العلمين سيدى أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين.

إمام ترقى فى معاريج الحقائق حتى انتهت دونه مقامات الأولياء، وعارف حلقت روحه فى سماوات الوصال حتى غابت عن ذاتيتها فى محيط الفناء.

وقطب جمع بين الشريعة والحقيقة علما وحالا وذوقا ومقالا، فتصدر للقيادة الروحية والتربية الصوفية على منبر الخصوصية والتمكين، وأروى قلوبا عطاشا طالما برح بها شوق إلى النور. وحنين إلى الطهر والصفاء فشعت قبسات هديه المحمدى لتنير الدرب وتثبت الأقدام وتشعل جذوة الشوق إلى الله فى قلوب عباد خلقوا للتفرد فى محاريب العبودية والاختصاص، فرفع الإمام الرفاعى علم الصوفية على صرح مدرسة جديدة تحمل اسمه وطريقته، وتنشئ رجالا يخلفون السلف الصالح فى إقبالهم على الله وتجردهم لخدمته وإحيائهم معالم الطريق المحمدى برائع سمته وجليل عظمته وشامخ مجده.

وشهد القرن السادس الهجرى تألق هذا المجد وبزوغه رأى العين وملء السمع والبصر، على نحو سنشير إليه - بجهد المقل - حسب طاقتنا وطاقة المقال، محاولين أن نضع مجرد نقط تومئ إلى سرج فى السماء وكواكب تسبح فى العلياء. فليكن التوفيق حليفنا، ولتطل علينا روحانية القطب الرفاعى لتسكب فى أعماقنا بارقة من نور تقودنا إلى معرفتها والتعريف بها إذ لا سبيل لنا إلى التحدث عنها إلا بها. فهى نفحة من نور سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ولعل أول ما يؤكد سريان المدد المحمدى إلى مولانا القطب الرفاعى رضى الله عنه أنه ينتمى نسبه إلى العترة المحمدية الطاهرة ، فقد أجمع الرواة والمؤرخون على أنه ينتهى نسبه من جهة أبيه إلى مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين ، فهو الإمام السيد أحمد بن السيد على بن السيد يحيى بن السيد الثابت بن السيد الحازم بن السيد أحمد بن السيد على بن السيد الحسن - الملقب برفاعة - ابن السيد المهدى بن السيد أبى القاسم محمد بن السيد الحسن بن السيد الحسين بن السيد موسى الثانى بن السيد إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين على ابن سيدنا الإمام أبى عبد الله الحسين بن

سيدنا على وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فأنعم به من نسب زكى [1] . وفى ذلك يقول الخطيب الإدفوى:

لنسبة أحمد المولى الرفاعى

لطه وصلة عظمت مقاما

سرى برهانها شرقا وغربا

وسار معطرا يمنا وشاما

ولقد بشر مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمولد القطب الرفاعى قبل ولادته، فقد روى أن العارف الربانى سيدى منصور البطائحى رضى الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول له: (يا منصور: أبشرك أن الله يعطى إلى أختك بعد أربعين يوما ولدا ويكون اسمه أحمد الرفاعى. ومثل ما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء. وحين يكبر فخذه واذهب به إلى الشيخ على القارى الواسطى وأعطه له كى يربيه؛ لأن ذلك الرجل عزيز عند الله ولا تغفل عنه) قال سيدى منصور: فقلت : الأمر أمركم يا رسول الله. عليك الصلاة والسلام. أهـ[2]

وقد ولد الإمام الرفاعى رضى الله عنه - كما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم - فى بيت خاله القطب البطائحى بقرية (أم عبيدة) من أعمال واسط بالعراق بوم الخميس فى النصف الأول من شهر رجب سنة اثنتى عشرة وخمسمائة هجرية[3]. وتفجر النور المحمدى الذى أهدته السماء إلى الأرض؛ لينشر فى ربوعها شعاع الإيمان واليقين، وليبث دعوة الإصلاح الروحى، ويحيى معالم الهدى المحمدى الوضاء. ولاحت سمات التفرد الاصطفائى منذ شروق حياة الإمام الرفاعى،

---

(١) انظر: قلادة الجواهر فى ذكر الغوث الرفاعى وأتباعه الأكابر للسيد محمد أبى الهدى الصيادى/ ص١٦.

(٢) انظر: قلادة الجواهر للسيد محمد أبى الهدى الصيادى ص٢٨ - ٢٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢ وقد ذكر فيه أن ولادة القطب الرفاعى كانت بقرية (حُسَّن) من أعمال البصرة عام وفاة خليفة بغداد أحمد المستظهر بالله العباسى. بينما ذكر الإمام المناوى فى (الكواكب الدرية: ١/ ٦٥٠ - ٦٥١) أن ولادة الإمام الرفاعى كانت بأم عبيدة بأرض البطائح سنة خمسمائة هـ.

فالأوساط الصوفية كلها كانت على موعد مع فجر ميلاده، سواء عن طريق الكشف أو التبشير كما حدث لخاله الشيخ منصور.

ولقد كانت نظرة واحدة إلى وجه الإمام الرفاعى وهو لا يزال رضيعا فى مهد طفولته تعطى للمتوسم كل دلالات التفرد والولاية، بل إن الأحداث نفسها كانت كثيرا ما تأخذ طابع الكرامات والخوارق. فقد روى صاحب (النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى)، أنه كان لسيدى أحمد مرضعة صالحة عفيفة النفس. فأعطته يوما ثديها فما قبله وأعرض عنها ، فنظروا فى الأمر وفحصوا فوجدوا هذه المرضعة بلا وضوء ، فلما توضأت شرب من لبنها رضى الله عنه !! كما روى فى نفس المرجع أن سيدى أحمد كان يشرب اللبن كل يوم من حين ولدته أمه إلى رمضان فتقيد بعدم شربه اللبن فيه إلى حين جاء العيد فشربه فى أول يوم وأفطر مع الناس فيه [1] !!

لقد أغدقت عليه العناية من إمدادها الربانى وتوالت النفحات مع الأيام والدقائق والأنفاس. وتكفل سيدى منصور البطائحى برعاية سيدى أحمد وتربيته حيث قد لحق أبوه بربه قبل ولادته، وعمل سيدى منصور بوصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فأخذ سيدى أحمد إلى الشيخ على الواسطى - بعد أن حفظ القرآن الكريم - وجمعه عليه ليربيه فى الطريق وليأخذ عليه العهد الوثيق. وبذا اجتمعت لسيدى أحمد روافد العرفان والتحقيق ممثلة فى خاله القطب الربانى الشيخ منصور، وشيخه على القارى. كما يروى صاحب النجم الساعى أنه أخذ أيضا عن خاله سلطان العلماء الشيخ أبى بكر الواسطى الأنصارى، علوم الشريعة وتفنن بها وألف الكتب الكثيرة [2].

---

(١) انظر قلادة الجواهر للعارف الصيادى ص: ٢٥، ٣٢.

(٢) ذكر العارف الصيادى فى (قلادة الجواهر ص ٤١) أن الشيخ عليا القارى الواسطى قد تولى أمر تربية سيدى أحمد الرفاعى وسلكه الطريق وأخذ عليه العهد الوثيق وتلقى عنده علوم الشرع، وانكشفت له - بإذن الله - أيام صحبته الحقائق والدقائق والظاهر والباطن، وكان سيدى على الواسطى شيخ العلماء وأهل الخرقة فى (البطيحة) وفى (واسط).

وبذا اجتمعت لسيدى أحمد تربية الظاهر والباطن، فقد تفقه فى الدين على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، ودرس (التنبيه) وألف شرحا عليه فيما بعد، كما صنف فى التفسير والحديث وعلوم القوم أسفارا ثمينة.

ولقد أقبل سيدى أحمد منذ صباه المبكر على شتى المناهل العذبة التى تؤهله لسلوك الطريق والمضى على قدم التحقيق. فنال منها راح المعرفة وإكسير الحكمة الربانية.

يروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى أحمد كان يقول: (لما مررت وأنا صغير على الشيخ العارف بالله تعالى عبد الملك الخرتونى وصانى وقال لى: يا أحمد، احفظ ما أقول لك. فقلت : نعم. فقال رضى الله عنه: ملتفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن لا يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان. فخرجت من عنده وجعلت أكررها سنة ثم رجعت إليه فقلت : أوصنى. فقال: ما أقبح الجهل بالألباء والعلة بالأطباء، والجفاء بالأحباء. ثم خرجت وجعلت أرددها سنة فانتفعت بموعظته) [1].

وهكذا كان سيدى أحمد يصعد سلم الارتقاء وعيون العارفين ترقبه بعنايتها وتتطلع إليه بفراستها فتكتشف فيه أمل المستقبل فى عالم الولاية.

روى الإمام النبهانى فى (جامع الكرامات) أنه مر بالإمام الرفاعى جماعة من الفقراء - أى فقراء الصوفية - فى صغره. فوقفوا ينظرونه، فقال أحدهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله.. ظهرت هذه الشجرة المباركة. فقال الثانى: تتفرع لها فروع. فقال الثالث: عن قليل يشتمل ظلها. فقال الرابع: عن قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها. فقال الخامس: عن قليل ترى الناس منها العجب ويكثر نحوها الطلب. فقال السادس: عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها. فقال السابع: كم يغلق لها باب، وكم يظهر لها أصحاب. أهـ [2].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/١٢٠ ط/ الشرفية.

(٢) انظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ٤٩٠ ط/ الحلبى (الثانية).

وعندما دنت وفاة سيدى منصور البطائحى شيخ أقطاب عصره، أراد بعض أهله وأصحابه ومريديه أن يجعل الخلافة فى الطريق لابنه من بعده. بيد أن سيدى منصورا كان يرى أن لا أحقية لأحد فى المشيخة من بعده إلا لسيدى أحمد الرفاعى. فقالت له زوجته: أوص لولدك. فقال: بل لابن أختى، فكررت عليه القول. فأراد أن يحسم الموقف بالدليل، فقال لابنه ولابن أخته: ائتيانى بنجيل من أرض كذا. فأتاه ابنه ينجيل كثير ولم يأته ابن أخته بشىء فقال له: يا أحمد لم لم تأت بنجيل؟ فقال: وجدته كله يسبح الله عز وجل فلم أستطع أن أقلع منه شيئا [1].

وهكذا برهن سيدى منصور على أحقية سيدى أحمد بالخلافة، ولمست زوجته وأهله وأصحابه شواهد الاستحقاق والتحقيق من عارف يشهر فى الموجودات بأسرها سر قوله تعالى: (وإن من شىء إلا يسبح بحمده).

وتسلم سيدى أحمد لواء الولاية خلفا لسيدى منصور رضى الله عنه، ومن ثم نتعرف على سند القطب الرفاعى فى الطريق، فقد تلقى خرقة التصوف من خاله سيدى منصور البطائحى، وهو عن شيخه سيدى محمد الشنبكى إمام التصوف بالطبائح فى عصره. وهو قد أخذ عن سيدى أبى بكر بن هوار البطائحى، الذى تلقى الخرقة عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه. فقد ذكر الإمام الشعرانى فى ترجمة سيدى أبى بكر بن هوار فى الطبقات ما نصه: (وهو أول من ألبسه أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخرقة ثوبا وطاقية فى النوم فاستيقظ فوجدهما عليه) [2] رضى الله عنهم أجمعين[3].

وإلى جانب هذا السند الظاهرى الذى سلك به القطب الرفاعى الطريق، فإن

---

(١) انظر: قلادة الجواهر للعارف الصيادى ص ٤١ وانظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١١٥.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/١١٣.

(٣) إلى جانب هذا السند الصديقى للإمام الرفاعى رضوان الله عليه: أورد العلامة ابن الملقن فى (طبقات الأولياء ص ٩٤) السند الطريقى الحسينى للإمام الرفاعى فقال: (وطريقه فى الصحبة: صحب خاله الشيخ منصور، وهو صحب بها الشيخ عليا القارى الواسطى، وهو صحب بها الشيخ أبا الفضل بن كامخ، وهو صحب بها الشيخ عليا الروزبارى وهو صحب بها الشيخ عليا العجمى، وهو صحب بها الشيخ أبا بكر الشبلى، وهو صحب بها الشيخ أبا القاسم الجنيد: وهو صحب بها السرى ... وبقية السند معروف).

سيدى أحمد كان يستمد سنده الباطنى من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مباشرة. ولقد ربته روحانية سيد العالمين - صلوات الله وسلامه عليه - ورقته إلى ذروة الولاية والتحقيق. بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الذى سماه بالرفاعى، فقد روى الشيخ أبو بكر العيدروس أن الشيخ عمادا الزنجى سأل السيد الكبير - سيدى أحمد - فقال، أى سيدى: ما سبب اشتهاركم بالرفاعية؟ فقال السيد الكبير: (يازنجى هو أنى كنت يوما جالسا فى عرفات، فإذا جماعة من الأولياء وأهل الطريق الأبدال فى ذلك المجلس، فالتفت فى جانبى فرأيت سيد المرسلين، فقال: يا رفاعى: قد ارتفعت درجتك فى الدنيا والآخرة، بشارة لك. فصار اسمى من ذلك اليوم مشهورا بالرفاعى بين أهل الحضرة؛ لأنهم سمعوه من نفس النبى صلى الله عليه وسلم). ذلك أمر التسمية الباطنية. وأما تسميته الظاهرية بالرفاعى فنسبة إلى جده رفاعة الحسن أبى المكارم المكى. وأما كنيته بأبى العلمين: فلاتصال نسبه من جهة أبيه بسيدنا ومولانا الإمام الحسين، ومن جهة أمه بسيدنا ومولانا الإمام الحسن رضى الله عنهما وعنا بهما فى الدارين.

وذكر بعض العارفين أن كنيته بأبى العلمين للإشارة إلى علمى الشريعة والحقيقة. فهو حامل لواء الظاهر والباطن، وإمام العلم الشرعى والحقيقى.

والمتصفح للجانب السلوكى عند مولانا القطب الرفاعى يرى أقباسا من الضياء تتوهج، وصفحات من النور تزخر بطاعة هذا العارف لربه وشغله به وتفانيه فى عبادته. يروى صاحب النجم الساعى عن الشيخ منصور العدوى قال: سمعت من الشيخ الزنكى قال: (إن السيد أحمد كان فى ليله ونهاره يختم القرآن الكريم، وكان ورده وذكره قراءة القرآن، فإنه أفضل الذكر). ويحدثنا الإمام المناوى فى طبقاته عن جانب الزهد والعبادة عند سيدى أحمد فيقول: (وكان لا يجمع بين قميصين شتاء وصيفا، ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلة واحدة، ويصلى كل يوم أربعمائة ركعة بألف «قل هو الله أحد»، ويستغفر كل يوم ألفين ، يقول: لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين) [1].

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٧ وقلادة الجواهر للعارف السيد محمد أبى الهدى الصيادى: ص ٦٦.

ويروى الشيخ العيدروس أنه كان رضى الله عنه إذا شرع فى الصلاة يصفر لونه الشريف، وإذا فرغ من صلاة الصبح يستمر فى مكانه جالسا بالذلة والمسكنة يقرأ الأوراد إلى ضحوة النهار العالية، وإذا فرغ من ذلك صلى صلاة الإشراق وصلاة الضحى ثم يتوجه إلى أم عبيدة، ويجاهد نفسه الغيورة الكريمة على العبادة، وكان يقول: إذا كنت فى الخلوة يحصل عندى التأسف والتحسر كثيرا، وكان دائما يرى فى الخلوة واقفا على قدميه ويجاهد نفسه وينشد هذا البيت ويقول:

والله لو علمت روحى بمن علقت

قامت على رأسها فضلا عن القدم [1]

لقد سكن العارف الرفاعى إلى ربه وأنس به، فسجد قلبه على بساط خدمته، واستجمعت همته كل الأحوال والمقامات، فلم يشغل بها عن مولاه. لقد تخطى كل الحواجز والعوائق وصار عبدا ربانيا محضا لا شائبة لرق فيه لغير سيده. وصارت الطاعة للمولى عز وجل هى الروح والريحان. لقد سقطت الأنية فى الطريق فلم يبق إلا روح نورانية مجردة، تغيب بفنائها فى معشوقها الأزلى، ثم تعود من رحلة الفناء إلى مقام البقاء، وعليها من حلل الجلال والجمال ما يضيق عنه نطاق المقال.

وإذا ما تساءلنا عن حقيقة مقام القطب الرفاعى ومكانته فى الطريق، فسوف يكون الجواب بغير حدود؛ لأن مولانا الإمام الرفاعى قد تخطى كل المقامات.

وليس هذا الحكم عفويا أو من عندياتنا أو من قبيل الحدس المبالغ فيه، فقد سجل الإمام الشعرانى رضى الله عنه هذا الحكم فى طبقاته، إذ حكى عن سيدى أحمد أنه قال له شخص من تلامذته: يا سيدى أنت القطب. فقال له سيدى أحمد: نزه شيخك عن القطبية. فقال له: وأنت الغوث. فقال : نزه شيخك عن الغوثية [1] !! ويعلق الإمام الشعرانى على ذلك قائلا: (قلت وفى هذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار؛ لأن القطبية والغوثية مقام معلوم، ومن كان مع الله وبالله فلا يعلم له مقام. وإن كان له فى كل مقام مقام والله أعلم) [2].

---

(١) انظر: طبقات الأولياء لابن الملقن: ص ٩٦.

(٢)، (٣) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٢٣ وقلادة الجواهر للعارف أبى الهدى الصيادى ص/ ٨٨، ١٢٨، ١٣١.

حقيقة أن سيدى أحمد لا يدرك شأوه فى الولاية، فهو أحد الأربعة الأقطاب الذين هم أركان الولاية العظمى، الوارثون للمدد المحمدى، المتآخية أرواحهم فى حضرة القدس. ولقد نقل عن كنز العارفين سيدى أحمد الزاهد رضى الله عنه أنه كان يقول: (المشايخ رضى الله عنهم عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف شيخ، وأعظمهم وأبرعهم فى باب المشيخة والولاية ثلثمائة شيخ. وأفضل الثلثمائة سبعون شيخا، وأفضل السبعين سبعة شيوخ، وأفضل السبعة أربعة شيوخ، وأفضل الأربعة شيوخ ثلاثة شيوخ، وأفضل الثلاثة واحد. واصطلاح القوم والأصحاب: هذا الواحد هو قطب الأقطاب سيدى أحمد الرفاعى الكبير).

وروى صاحب النجم الساعى أن الشيخ حجى خالد ومجرد الأكبر وعماد الدين الزنجى وعلى بن نعيم البغدادى ويعقوب الكراز والشيخ على بن عبد الوهاب وسيدى عبد السلام وسيدى عبد القادر الجيلانى، جميعهم شهدوا أن جميع الأولياء تشهد أن السيد الكبير سيدى أحمد الرفاعى غالب أوقاته دائر فى العالم العلوى، ووجوده فى العالم السفلى كناية عن النوع لأنه كان دائم السكر والغرق فى بحر المحبة للحق، وكان دائم التوجه للعالم المجرد والثناء المطلق. أ هـ.

ولقد كان الإمام الرفاعى دائم الحضور مع الله تعالى، وفى الحضرة المحمدية يقظة ومناما. فقد نقل الشيخ العيدروس عن الشيخ نجم الدين أنه قال: قال لى سيدى أحمد الرفاعى: (قد رأيت الله سبحانه وتعالى فى المنام مائة مرة وأربع عشرة مرة، ورأيت سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام مائة وسبعا وأربعين مرة .. وقال: هذا فى النوم. وما غاب عنى يقظة أبدا).

ولقد كان الإمام الرفاعى رضى الله عنه غارقا فى بحار المشاهدات والتجليات التى لا يسع العقل تصورها. يقول الإمام الشعرانى فى محلقاته مصورا أحد مشاهد التجلى الإلهى التى كانت تحدث لسيدى أحمد: وكان إذا تجلى الحق تعالى عليه بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء ثم يتداركه اللطف فيصير يجمد

شيئا فشيئا حتى يرد إلى جسمه المعتاد ويقول: لولا لطف الله تعالى بى ما رجعت إليكم) [1].

وها هو يصف أحوال المتمكنين فيقول: (إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى، وصارت همته خارقة للسبع السموات ، وصارت الأرضون كالخلخال برجله، وصار صفة من صفات الحق جل وعلا، لا يعجزه شيء، وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ويسخط لسخطه. قال: ويدل لما قلناه: ما ورد فى بعض الكتب الإلهية: يقول الله عز وجل: يا بنى آدم أطيعونى أطعكم، واختارونى أخترکم، وارضوا عنى أرض عنكم، وأحبونى أحبكم، وراقبونى أرقبكم وأجعلكم تقولون للشيء كن فيكون .. يا بنى آدم: من حصلت له حصل له كل شيء، ومن فته فاته كل شيء).

ويعلق الإمام الشعرانى على ما يلتبس فهمه من تلك العبارة فيقول: (وقوله صار صفة من صفات الحق تعالى، لعله يريد التخلق والاتصاف بصفته تعالى من الحلم والصفح والكرم؛ لأنه لا يصح لأحد أن يكون عين صفات الحق. فهو كقوله (فبى يرى وبى يسمع وبى ينطق وما أشبه ذلك) [2].

ثم لنقف الآن عند جانبين من أبرز الجوانب التى حفلت بها شخصية الإمام الرفاعى رضى الله عنه وفاق فيهما الذروة، وهما (الفتوة والتواضع). وفى تعريف الفتوة يقول الإمام القشيرى: (أن يكون العبد ساعيا أبدا فى أمر غيره) [3].

وفيها يقول العارف أبو على الدقاق: (هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن كل أحد فى القيامة يقول: نفسى.. نفسى.. وهو - صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى.. أمتى..) [4].

ولقد كان القطب الرفاعى شفوقا بالمسلمين إلى حد الافتداء والإيثار، فقد

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لسيدى الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١٢٢.

(٢) المصدر الأخير: ١/ ١٢١.

(٣) (٤) انظر: الرسالة القشيرية للإمام القشيرى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود: ٢/ ٤٧٢.

ذكر الإمام الشعرانى أن سيدى أحمد كان رضى الله عنه يمرغ وجهه وشيبته فى التراب ويبكى ويقول: (العفو .. العفو .. اللهم اجعلنى سقف البلاء على هؤلاء الخلق) [1].

وكان رضى الله عنه حمالا للأذى فى تسامح كريم، ولم يتغير خاطره من مخلوق قط مهما تطاول عليه بالأذى أو لج فى العناد والإنكار. ولقد روى الإمام الشعرانى أن الشيخ إبراهيم البستى أرسل إلى سيدى أحمد كتابا يحط عليه فيه. فقال سيدى أحمد للرسول: اقرأه. فقرأه فإذا فيه: أى أعور أى دجال أى مبتدع يا من جمع بين الرجال والنساء حتى ذكر الكلب بن الكلب، وذكر أشياء تغيظ، فلما فرغ الرسول من قراءة الكتاب، أخذه سيدى أحمد رضى الله عنه وقرأه وقال: صدق فيما قال جزاه الله عنى خيرا ثم أنشد:

ولست أبالى من زمانى بريبة

إذا كنت عند الله غير مريب

ثم قال للرسول أكتب إليه الجواب، (من هذا اللاش حميد إلى سيدى الشيخ إبراهيم البستى رضى الله عنه أما قولك الذى ذكرته فإن الله تعالى خلقنى كما يشاء وأسكن فى ما يشاء وإنى أريد من صدقاتك أن تدعو لى ولا تخلينى من حلك وحلمك) فلما وصل الكتاب إلى البستى عام على وجهه، فما عرفوا إلى أين ذهب!![2] وكانت لسيدى أحمد شفقة بالغة بالحيوان حتى إن القطب الشعرانى قال: (وكان قد كلفه الله بالنظر فى أمر الدواب والحيوانات) [3]، وذكر أنه كان إذا جلس على ثوبه جرارة وهومار فى الشمس وجلست على محل الظل، يمكث لها حتى تطير، ويقول: إنها استظلت بنا !! وكان إذا نام على كمه هرة وجاء وقت الصلاة يقطع كمه من تحتها ولا يوقظها. فرذا جاء من الصلاة أخذ كمه وخاطه ببعضه !! ووجد رضى الله عنه مرة كلبا أجرب أخرجه أهل أم عبيدة إلى محل بعيد، فخرج معه إلى البرية

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى: ١/ ١٢٣.

(٢)، (٣) المصدر نفسه: ١/ ١٢٢ - ١٢٣.

وضرب عليه مظلة وصار يطليه بالدهن ويطعمه ويسقيه ويحت الجرب منه بخرقة. فلما برئ حمل له ماء ساخنا، وغسله [1] !

إنها الرحمة الرحيمة والشفقة المثالية بخلق الله .. ومن ثم فقد سخر الله له المخلوقات حتى إن أشد الحيوانات والهوام إيذاء قد ذللت للإمام الرفاعى. مثل الحيات والعقارب والثعابين وغيرها. ولا تزال طائفة الرفاعية تشتهر بترويض هذه الحيوانات المؤذية واقتنائها إلى يومنا هذا. ولا عجب، فمن أطاع الله أطاعه كل شىء.

ولقد ضرب سيدى أحمد الرفاعى أروع الأمثلة فى التواضع الجم والأدب المحمدى والذلة والانكسار وأدب مريديه بآدابه. فقد روى عن خادمه الشيخ يعقوب أنه قال: نظر سيدى أحمد رضى الله عنه إلى النخلة فقال : يا يعقوب، انظر إلى النخلة لما رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقل حملها عليها ولو حملت مهما حملت. وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت نفسها ألقت خدها على الأرض، جعل ثقل حملها على غيرها ولو حملت مهما حملت لا تحس به [2].

ولقد كان رضى الله عنه يقول لأولاده: (من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له. فإن مد يده لكم لتقبلوها فقبلوا رجله، ومن تقدم عليكم فقدموه، وكونوا آخر شعرة فى الذنب فإن الضربة أول ما تقع فى الرأس) [3].

وقال رضى الله عنه لأصحابه يوما (من رأى منكم فى حميد - ويعنى نفسه - عيبا فليعلمه به. فقام شخص فقال: يا سيدى فيك عيب عظيم. فقال: وما هو يا أخى؟ فقال: كون مثلنا من أصحابك. فبكى الفقراء وعلا نحيبهم وبكى سيدى أحمد معهم وقال: أنا خادمكم أنا دونكم) [4]. هذه هى أخلاق النبوة التى ورثها الوارث المحمدى سيدى أحمد الرفاعى.

---

(١) نفس المصدر: ١/ ١٢٢.

(٢) نفس المصدر: ١/ ١٢٠.

(٣) نفس المصدر: ١/ ١٢١ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى (٢١ / ٧٨) وفيه بدل قوله «أنا خادمكم أنا دونكم». وقال - أى الشيخ - : أى عمر: (إن سلم المركب حمل من فيه) وكان المخاطب عمر الفاروق.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ١٢٣.

ولقد كان آخر مثل ضربه فى الفتوة - رضى الله عنه هو ما رواه الإمام الشعرانى أن سيدى يعقوب خادمه رضى الله عنه قال: لما مرض سيدى أحمد رضى الله عنه مرض الموت قلت له: تجلى العروس فى هذه المرة؟ قال: نعم. فقلت له: لماذا؟ فقال: جرت أمور اشتريناها بالأرواح، وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم وشريته بما بقى من عمرى فباعنى) [1] !!

لله أنت يا إمام العارفين.. يا معدن الرحمة من سيد الأولين والآخرين. لقد أسس الإمام الرفاعى طريقته السنية على نهج الكتاب والسنة، فاهتدى بها السالكون ووصل بها السائرون.

،منهج الطريقة الرفاعية قد رسمه شيخها بقوله رضى الله عنه: (طريقى دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة) وروح المشرب الرفاعى الذى بنى عليه طريقه يتمثل فى قوله رضى الله عنه: (سلكت كل طريق فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار، والانكسار لتعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله والاقتداء بسنة سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم) [2] وقال: (رأيت جميع الطرق إلى الله تعالى فما رأيت أحسن ذخيرة وأقرب إلى الله تعالى من طريق الذل والانكسار والمسكنة).

وغنى عن الذكر أن ما يعنيه سيدى أحمد بالذل والانكسار والمسكنة ليس المراد به الضعف فى الدين ولا امتهان حرمة المسلم، فذلك بمنأى عن قصده، بل هو على النقيض منه. ولكن المراد هو إذلال النفس بالعبودية لخالقها والانقياد له حتى ينتقل سلطانها إلى القلب كما قال عليه رضوان الله: (ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس) [3].

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ١٢٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين السبكى ١/ ٢٥ ط/ الحلبى (المحققة). وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبى: ٢١/ ٧٩ وفيه بلفظ: (أقرب الطريق الانكسار والذل والافتقار، تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله وتقتدى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم).

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٧، ٦٥٩.

وكان رضى الله عنه يقول: (طريقتنا مبنية على ثلاثة أشياء: لا نسأل، ولا نرد، ولا ندخر) [1]. ولقد ربى الإمام الرفاعى أبناءه ومريديه بنور معرفته، وغسل قلوبهم بماء حكمته، لقد كان رضى الله عنه يقول: (إذا صلح القلب صار مهبط الوحى والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشيطان، وإذا صلح القلب أخبرك بما وراءك وأمامك ونبهك على أمور لم تكن تعلمها بشىء دونه، وإذا فسد حدثك بباطلات يغيب معها الرشد وينتفى معها السعد) [2]. وكان يقول عليه الرضوان: (من شرط الفقير أن يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر فيودع كل نفس أعز ما يصلح له فلا يضيع له نفس) [3].

ولقد سلك على يديه رجال ورجال نهلوا من نبعه كأس المحبة والوصال. يقول الإمام المناوى رضى الله عنه: (وكانت حلقة مريديه ستة عشر ألفا) [4].

ويروى أنه ترك يوم وفاته أتباعا عدوا يومها بمائة ألف أو يزيدون. لقد تجمعت هذه القلوب لتستقى من معين الحكمة والمعرفة، وترتوى من فيض إلهام القطب اللدنى الذى لا ساحل لمحيط معرفته.

لقد تحدث يوما عن الكشف فقال: (الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب، فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنبع إلى فيضه، ثم يتقاذف نوره منعكسا بضوئه على صفاء القلب ثم يترقى ساطعا إلى عالم العقل فيتصل به اتصالا معنويا له أثره فى استفاضة نور العقل على ساحة القلب، فيشرق نور العقل على إنسان عين السر، فيرى ما خفى عن الأبصار موضعه، ودق عن الأفهام تصوره، واستتر عن الأغيار مرآه) [5].

سبحان من أفاض على أوليائه بتلك المنح العرفانية. ونأتى أخيرا إلى جانب الكرامات ، وماذا عسى أن نقول؟ إن مقياس الكرامات لا يقوى على استيعاب ما

---

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٧، ٦٥٩.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٦٥٦.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ١٢١.

(٤) انظر: الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للإمام المناوى ١/ ٦٥١.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٢٠.

حفلت به شخصية القطب الرفاعى. فكل جوانب حياته كرامات وفيها ما هو أكبر من الكرامات. فلنذكر تبركا ما يزيدنا عرفانا بالمقام الرفاعى:

روى جمهرة الصوفية أن سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه لما حج وقف تجاه الحجرة العطرة النبوية وقال: السلام عليك يا جدى، فرد عليه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قائلا: وعليك السلام يا ولدى. فتواجد سيدى أحمد لهذه المنحة الجليلة وقال منشدا:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها

تقبل الأرض عنى وهى نائبتى

وهذه دولة الأشباح قد حضرت

فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

فمد له الرسول - صلى الله عليه وسلم - يده الشريفة من قبره الكريم فقبلها فى ملأ يقرب من تسعين ألف رجل والناس ينظرون يد الرسول صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه. وكان من شهود هذا الموقف الجليل سيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى عدى الشامى والشيخ ابن قيس الحرانى وغيرهم من كبار العارفين رضى الله عنهم أجمعين [1].

ومن كراماته: أن رجلين تحابا فى الله اسم أحدهما معالى والآخر عبد المنعم، فخرجا إلى الصحراء، فتمنى أحدهما كتاب عتق من النار ينزل من السماء، فسقطت منها ورقة بيضاء فلم يريا فيها كتابة، فأتيا القطب الرفاعى ولم يخبراه بالقصة. فنظر إليها ثم خر ساجدا وقال، الحمد لله الذى أرانى عتق أصحابى من النار فى الدنيا قبل الآخرة. فقيل له : هذه بيضاء. فقال: أى أولادى.. يد القدرة لا تكتب بسواد. وهذه مكتوبة بالنور [2] ا.ه.

---

(١) انظر: قلادة الجواهر للعارف السيد محمد أبى الهدى الصيادى ص ١٠٨ - ١٠٩. وانظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى: ١/ ٤٩٤ ط/ الحلبى (الثانية).

(٢) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٢.

ومنهـا أيضـا أن بعض أصـحـابه رآه فى المنام فى مـقـعـد صـدق مـرارا ولم يخبره. وكان للشيخ امرأة بذية اللسـان، تسفه عليه وتؤذيه. فدخل عليه الذى رآه فى مقعد صدق يومـا، فوجد بيد امرأته محـراك التنور وهى تضربه على أكتافه فاسود ثوبه وهو ساكت. فانزعج الرجل وخرج من عنده. فاجتمع بأصحاب الشيخ وقال: يا قوم: يجرى على الشيخ من هذه المـرأة هذا وأنتم سكوت؟؟ فـقـال بعضهم: مهـرها خمسـمـائة دينار وهو فـقـيـر. فـمضى الرجل وجمع خـمـسـمـائة دينار وجـاء بهـا إلى الشيخ فى صينية فوضعها بين يديه. فقال له: ما هذا؟ فقال: مهر هذه الشقية التى فعلت بك كذا وكذا. فتبسم وقال: (لولا صبـرى على ضربهـا ولسـانها مـا رأيتنى فى مقعد صدق) [1].

إنه خلق الفتوة وإنها عظمة الشـخصية وقوة التحمل تتمثل بـأسمى معـانيها وأروع صورها فى الإمـام الرفاعى قطب الأقطـاب، الذى ربى أقطابا ورجالا يسـيرون على دربه المحمدى فى كل عصر. ولقد كان من صفوة وارثيه فى هذا العصر مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضوان الله عليه الذى تجسدت فيه الأخلاق المحمدية وانطبع أثرها فيمن سلك على يديه.

وأخيرا: فهذا هو الإمام الـرفاعى الذى ترجم له الحافظ الذهبى - أحد أئمة السلفية - قائلا: (الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين أبو العباس أحمد بن أبى الحسن.. الرفاعى المغربى ثم البطائحى) [2].

(وبعد)،

فـقـد عـشنا فى رحـابك يا سـيـدى يا أبا العلمـين، نرتوى من مـددك، وننعم بذكـرك، فـبـحق جـدكم المـصطفى - صلى الله عليـه وسلم - أن تمـدونا بمـددكم وتجذبونا بأنواركم إلى رحاب عطفكم. رضى الله عنكم وجعلنا من ورثة أمدادكم فى الدنيا ويوم الدين.

---

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى: ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى بتحقيق د. بشار عواد، د. محيى هلال: ٢١/ ٧٧ -٧٨.